

الدرس الثلاثون

الناس والأنبياء.

- المقدمة.
- موقف الناس تجاه الأنبياء.
- عوامل معارضة الانبياء ودوافعها.
- الأساليب التي استخدمت لمواجهة الأنبياء.
- بعض السنن الالهية في إدارة الأمم.

المقدمة

حين يذكر القرآن الكريم الأنبياء السابقين، ويستعرض قصص حياتهم النيرة والمباركة، ويزيل غبار التحريف والتشويه العمدي وغير العمدي من صفحات تاريخهم المشرقة؛ يهتم اهتماماً كبيراً بمواقف الأمم تجاه الأنبياء (ع).

فمن ناحية، يتعرض لمواقف الناس تجاه أنبياء الله، والعوامل التي دفعتهم لمعارضتهم، ومن ناحية أخرى؛ يشير الى طرق الهداية والتربية التي استخدمها الأنبياء، وأساليب مكافحتهم ومواجهتهم لعوامل الكفر والشرك والانحراف، وينبّه على السنن الالهية في إدارة الشعوب والمجتمعات، وخاصة العلاقات والمواقف المتبادلة بين الناس والأنبياء، حيث تشمل على ملاحظات مثمرة وتربوية رائدة.

وأمثال هذه البحوث - وإن لم ترتبط بصورة مباشرة بالمسائل العقائدية والكلامية - ولكن بما أنها تسلط بعض الأضواء على مسائل النبوة، وتزيل الكثير من الغموض والتعقيد عنها، ومن أجل تأثيراتها الفاعلة والمثمرة في إصلاح الناس وتربيتهم، وأقتباس العبرة والموعظة من الحوادث التاريخية المهمة؛ فإنها تملك أهمية بالغة، ومن هنا نشير في هذا الدرس الى أهم هذه البحوث.

موقف الناس تجاه الأنبياء

حين ينهض الأنبياء الإلهيون لدعوة الناس لعبادة الله وحده^(١)، وإطاعة

(١) النحل/٣٦، والأنبياء/٢٥، وفصلت/١٤، والاحقاف/٢١.

تعاليمه، والإعراض عن أصنامهم وآلهتهم الباطلة، ورفض الشياطين والطواغيت، والابتعاد عن الظلم والفساد والمعاصي والأعمال القبيحة؛ فإنهم سيواجهون بمعارضة الناس لهم ومخالفتهم^(١)، وخاصة من أمثال حكام المجتمع، وأثريائهم ومترفيهم المتشدين والغارقين بحياتهم العابثة اللاهية^(٢)، والمغرورين بأموالهم ومناصبهم، أو بعلمهم وثقافتهم^(٣). إن هؤلاء سيبدلون كل جهودهم وقواهم لمحاربة الأنبياء والوقوف بوجههم، ويجرّون الكثير من الجماعات والفئات الأخرى لاتباعهم، ويصدّونهم عن اتباع الحق^(٤)، ولكن - وبصورة تدريجية - ستؤمن بالأنبياء الإلهيين جماعة قليلة أكثرها من محرومي المجتمع^(٥).

ومن النادر إقامة مجتمع على أساس العقائد الصحيحة، وموازن العدل والقسط وإطاعة أمر الله والأنبياء، كما هو الملاحظ في زمان سليمان (ع) حيث وُجد مثل ذلك المجتمع، وإن كانت بعض تعاليم الأنبياء تستشق طريقها لحضارات الشعوب وتنفذ إلى جوهر ثقافتهم وتأخذ بالانتقال من أمة لأخرى، وسيقتبس منها الكثير، وأحياناً ستطرح كأعمال وأطروحات مبتكرة لزعماء الكفر، كما هو الملاحظ في الكثير من الانظمة الحقوقية والقانونية في العالم، حيث إنها مقتبسة من الشرائع السماوية ويطحها أصحابها كآراء ونظريات مبتكرة لهم، دون أن يُذكر مصدرها ومنبعها الأصلي.

عوامل معارضة الأنبياء ودوافعها

إن لمعارضة الأنبياء - إضافة للعامل العام، وهو الرغبة بالتحلل واتباع

(١) إبراهيم/٩، والمؤمنون/٤٤.

(٢) سبأ/٣٤.

(٣) غافر/٨٣، والقصاص/٧٨، والزمر/٤٩.

(٤) الأحزاب/٦٧، وسبأ/٣١ - ٣٣.

(٥) هود/٢٧ - ٣١ و٤٠.

الأهواء النفسية^(١) - عوامل ودوافع أخرى، منها: الغرور، والعزّة بالإثم، والاستكبار؛ التي تبرز كثيراً في أوساط الأشراف والأثرياء والمترفين والطبقات العليا في المجتمع^(٢)، ومنها العصبية والالتزام المتشدد بتقاليد السابقين والآباء والأجداد، والعادات الخاطئة المتفشية بين الشعوب المختلفة^(٣)، وكذلك يعتبر الحفاظ على المصالح والامتيازات الاقتصادية والمراكز الاجتماعية^(٤)، دافعاً قوياً للأثرياء والحكام والعلماء لاتخاذهم ذلك الموقف من الأنبياء.

ومن جانب آخر فإنّ للجهل وعدم الوعي المنتشر في عامّة الناس دوره الكبير في سقوطهم في شرك الطواغيت وجبارة الكفر، وقد أدى تقليد الكبار والأغلبية الى ركون الناس لأوهامهم ومعتقداتهم، والإعراض عن الدين الذي لم يؤمن به إلا القليل، وخاصّة ما يرى في المتدينين انهم من الأفراد الذين لا يتمتّعون بمراكز اجتماعية مهمّة، والمنبوذين من زعماء القوم وأغلبية المجتمع، بالإضافة لذلك كلّ ضغط القوة الحاكمة والمستكبرين^(٥).

الاساليب التي استُخدمت لمواجهة الأنبياء

لقد استخدم الأنبياء أساليب مختلفة في مواجهتهم لنشاطات الأنبياء وجهودهم:

أ - الاستهانة والاستهزاء: - ففي البداية كانوا يحاولون القضاء على شخصية الرُّسل الإلهيين ونفوذهم من خلال الاستهانة والاستهزاء بهم^(٦)، ليقف

(١) المائدة/٧٠.

(٢) غافر/٥٦، والأعراف/٧٦.

(٣) البقرة/١٧٠، والمائدة/١٠٤، والأعراف/٢٨، ويونس/٧٨، والأنبياء/٥٣، الشعراء/٧٤، ولقمان/٢١، والزخرف/٢٢ - ٢٣.

(٤) هود/٨٤ - ٨٦، والقصاص/٧٦ - ٧٩، والتوبة/٣٤.

(٥) إبراهيم/٢١، وهود/٢٧، والشعراء/١١١، وفاطر/٤٧ (هكذا في الاصل والترجمة وربما تكون الآية ٤٠ هي المقصودة اذ سورة فاطر لا تحتوي سوى ٤٥ آية

- المصحح).

(٦) الحجر/١١، ويس/٣٠، والزخرف/٧، والمطففين/ ٢٩ - ٣٢.

عامّة الناس منهم موقف اللامبالاة وعدم الاكتراث.

ب - الافتراء والتهم : - وبعد ذلك يستخدمون أسلوب الكذب والتهمة والافتراء ليلصقوا بهم تهماً بشعة، أمثال إن الرسول (سفيه) أو (مجنون)^(١)، وحين يأتي بالمعجزة فإنهم يتهمونه بالسحر^(٢) كما يطلقون على الرسائل تسمية (الاساطير)^(٣).

ج - المجادلة والمغالطة : - وحين يتحدث رسل الله مع الناس بلغة الحكمة والاستدلال، ويأخذون بالحوار معهم بأسلوب المجادلة بالأحسن، أو وعظهم ونصيحتهم وتحذيرهم من مغبة الكفر والشرك والظنّان، وتعريفهم على المعطيات الزاخرة للإيمان بالله، وبشارة المؤمنين والصالحين بسعادة الدنيا والآخرة... في مثل هذه الحالات، كان زعماء الكفر يمنعون الناس من الإصغاء لأحاديثهم، ثم يحاولون الجواب عنهم بمنطق غبيّ وضعيف، ويحاولون خداع الجماهير بأحاديث منمّقة ظاهراً^(٤)، ومنعهم من اتباع الأنبياء (ع)، وعلى الغالب يتشبّثون في أحاديثهم بأساليب القدماء والأجداد وتقاليدهم وعاداتهم^(٥)، ويواجهونهم بثرواتهم وتفوّقهم المادي، ويعتبرون تخلف أتباع الأنبياء مادياً وضعفهم؛ دليلاً على عدم صحّة معتقداتهم^(٦)، ثمّ يتمسّكون ببعض الذرائع والمسوّغات لتقاعسهم وممارساتهم أمثال: لماذا لم يجعل الله انبياءه وسفراءه من الملائكة؟ أو لماذا لم يتمتّع هؤلاء بامتيازات

(١) الأعراف/٦٦، والبقرة/١٣، والمؤمنون/٢٥.

(٢) الذاريات/٣٩، و٥٢ و٥٣، والأنبياء/٣، والقمر/٢.

(٣) الانعام/٢٥، والانفال/٣١، والنحل/٢٤، والمؤمنون/٨٣، والفرقان/٥، والنمل/٦٨، والاحقاف/١٧، والقلم/١٥، والمطففين/١٣.

(٤) نوح/٧، وفصلت/٢٦، والانعام/١١٢ و١٢١، وغافر/٥٥ و٣٥، والأعراف/٧ - ٧١، والكهف/٥٦.

(٥) البقرة/١٧٠، والمائدة/١٠٤، والأعراف/٢٨، والأنبياء/٥٣، ويونس/٧٨، ولقمان/٢١.

(٦) يونس/٨٨، وسبأ/٣٥، والقلم/١٤، ومريم/٧٧، والمدثر/١٢، والمزمل/١١، والاحقاف/١١.

اقتصادية ومعيشية بارزة^(١)؟ وربما بلغ عنادهم الى هذه الدرجة من الانحطاط بأن يقولوا: لا نؤمن حتى ينزل الوحي علينا أنفسنا، أو نرى الله جهرة، ونسمع كلامه بدون واسطة^(٢).

د - التهيب والترغيب: - الأسلوب الآخر الذي ينقله القرآن الكريم عن الكثير من الأمم؛ تهديدهم أنبياء الله وأنصارهم بأنواع العذاب والتنكيل، وبإخراجهم من مدنهم وبلادهم، ورجمهم بالحجارة، أو بقتلهم^(٣). ومن جانب آخر، استخدام وسيلة الاغراء والترغيب، وخاصة بذل الأموال الطائلة لمنع اناس من اتباع الأنبياء^(٤).

هـ - استخدام العنف والقتل: وأخيراً حين يرون مدى صبر الانبياء واستقامتهم وثباتهم^(٥)، ومدى ثبات أنصارهم وأتباعهم الحقيقيين واصرارهم، ومع بأسهم من تأثير وسائل الاعلام وسائر الأساليب المستخدمة في هذا السبيل... بعد ذلك كله يقومون بتنفيذ تهديدهم عملياً، وأستخدام العنف والقوة ضدّهم، فقد قتلوا الكثير من الأنبياء^(٦) لتُحرَم الإنسانية والشعوب من أعظم النعم والمعطيات الالهية، وأفضل المصلحين والقادة الاجتماعيين.

بعض السنن الالهية في ادارة الأمم

إن الهدف الرئيس للأنبياء (ع) وإن كان هو تمكين الناس من الوصول الى المعارف والمعلومات التي يلزم توفرها من أجل الوصول الى سعادتهم الدنيوية والأخروية، وسدّ النقص والقصور الناشئ من عقولهم وتجاربهم

(١) الانعام/٧ - ٩، والاسراء/٩٠ - ٩٥، والفرقان/٤ - ٨.

(٢) البقرة/١١٨، والانعام/١٢٤، والنساء/١٥٣.

(٣) ابراهيم/١٣، وهود/٩١، ومريم/٤٦، ويس/١٨، وغافر/٢٦.

(٤) الانفال/٣٦.

(٥) ابراهيم/١٢.

(٦) البقرة/٦١ و٨٧ و٩١، وال عمران/٢١، و١١٢ و١٨١، والمائدة/٧، والنساء/١٥٥.

بواسطة الوحي ، وبعبارة أخرى إقامة الحجّة عليهم^(١) ولكن حين يُبعث الأنبياء فإن الله تعالى لشدة رحمته ورأفته على العباد، ومن خلال تدابيره الحكيمة يوفر الأجواء النفسية لتقبّل دعوتهم، ليعين الناس على مسيرتهم التكاملية . وبما أن أكبر عامل للكفر والانحراف والإعراض عن الله والأنبياء هو الشعور بعدم الحاجة^(٢)، والغفلة عن حاجات الخلق الوسيعة والشاملة، لذلك وفر الله الحكيم أجواء وأسباباً تدفع الناس للالتفات والتوجّه لحاجاتهم وضروراتهم، وإنقاذهم من عقد الغفلة والغرور والعصبيّة، ومن هنا ربّما يتّليهم ببعض المحن والابتلاءات والمصاعب ليدفعهم ذلك لاحتساس بضعفهم ولتوجّهوا الى الله^(٣).

ولكنّ هذا العامل لم يكن تأثيره عامّاً وشاملاً، فإنّ هناك الكثير من الناس وخاصّة أولئك كانوا يتمتّعون أكثر من غيرهم بامتيازات وامكانات ماديّة، وقد عاشوا سنوات طويلة حياة الترف واللّهو، على حساب الظلم والجور الذي ينزلونه بالآخرين، وكما يعبر القرآن الكريم أنّهم كالحجارة، بل أشدّ قسوة . . إنّ هؤلاء لم يستيقظوا من غفلتهم^(٤)، بل ظلّوا سادّين غافلين، واستمرّوا على السير في طريق ضلالهم، كما لو لم تؤثر فيهم مواعظ الأنبياء ونصائحهم وتحذيراتهم.

وحين يرفع الله تعالى عنهم العذاب، ويُنهي حالة الابتلاء ويفيض نعمه على الناس مرّة أخرى، كانوا يقولون ﴿قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾^(٥)، ويعودون من جديد الى ظلمهم، وجمعهم للثروات، وتنمية قواهم، غافلين

(١) النساء/٦٥، وطه/١٣٤.

(٢) العلق/٦.

(٣) الأنعام/٤٢، والأعراف/٦٤.

(٤) الأنعام/٤٣، والمؤمنون/٧٦.

(٥) الأعراف/٩٥.

عن أن مثل هذا التوسّع والتكاثر في ثرواتهم وقواهم شرك وامتحان الهيّ يؤدّي بهم الى الشقاء في الدنيا والآخرة^(١).

وعلى كلّ حال . . حين يبلغ عدد أتباع الأنبياء وأنصارهم الى درجة يمكنهم من خلالها إقامة مجتمع مستقل، ويمكنهم الدفاع عن أنفسهم، ومحاربة اعداء الله، فإنّهم يؤمرون بالجهاد^(٢)، وسوف يُصبُّ بأيديهم عذاب الله على رؤوس الكافرين^(٣)، وفي غير هذه الحالة، وحينما لا يكونوا قد بلغوا هذه المرحلة من القوة، فإنّ المؤمنين وبأمر من الأنبياء يُعرضون عن الكفّار ويتجنّبونهم، وسوف ينزل العذاب الإلهي من قنوات أخرى على رؤوس الأمة الجاحدة التي لا يؤمّل فيها أيّ خير وعودة لظلال الله^(٤)، وهذه هي السّنة الإلهية التي لا تقبل التغيير في إدارة الأمم وتديرها^(٥).

-
- (١) الأعراف/ ١٨٢ و ١٨٣، وآل عمران/ ١٧٨، والتوبة/ ٥٥ و ٨٥، والمؤمنون/ ٥٤ - ٥٦
(٢) آل عمران/ ١٤٦.
(٣) التوبة/ ١٤.
(٤) العنكبوت/ ٤٠، وآيات كثيرة أخرى.
(٥) فاطر/ ٤٣، وغافر/ ٨٥، والاسراء/ ٧٧.

الأسئلة :

- ١ - ما هو موقف الناس تجاه دعوة الأنبياء (ع)؟
- ٢ - اذكر عوامل معارضة الأنبياء ودوافعها.
- ٣ - ما هي الأساليب التي استخدمها معارضو الأنبياء؟
- ٤ - اذكر السُنن الإلهية في مجال بعثة الأنبياء ، وموقف الناس منهم .